الهجوم المصريّ بالعبور العكسيّ لقناة السويس. أما الصدمةُ الكبرى فكانت حين كبرتُ وفهمتُ ما عنته رحلةُ السادات من القاهرة إلى برلمان إسرائيل. لكنّي، مع ذلك، لم أكرهْ مصر. كنتُ أحبّ مصر رغم السادات، وبقيتُ أحبّها حين اتّهم الكلُّ تقريبًا مصرَ الرسميّةَ بالخيانة. كنتُ من أوائل المسافرين إلى مصر بعد أن تعمّد الساداتُ في برلمان إسرائيل وأغرق مصرَ والعربَ في غيبوبةٍ منذ ذلك اليوم. ذهبتُ إلى القاهرة لأكتشفَ سرَّ صوت عبد الحليم (بعد رحيله)، ولأستنشقَ هواءَ **أبي فوق الشجرة**، ولأمشيَ على صفحات ثلاثيّة نجيب محفوظ، ولأعيشَ أسطورةَ **خان الخليلي**.

كنتُ مندهشًا في تلك الزيارة الأولى القصيرة لأنّ كلَّ الذين قابلتُهم هناك، جنودًا وسائقي سيّارات وتجّارًا...، أفهموني أنهم لا يستطيعون تحمّلَ فكرة تعميد رئيس مصر في برلمان إسرائيل، ولا «السلامَ» الآتيَ من فعلته تلك. ومع ذلك دُهشتُ للطبقيّة المتوحّشة هناك. لم أتوقّعها! لم أفكّرْ أنّ مصر هكذا! أذْكر أنّ أحدهم، حين قلتُ له إنني من فلسطين، عرض أن يأخذني إلى الشيخ إمام. شكرتُه على لطفه، وذهبتُ لأرى سيّدنا الحسين، والأزهرَ، وبابَ العتبة، ولأشربَ المنجا. ولم أبحثْ عن ميرفت أمين، بل فضّلتُ أن تظلّ تسكن أحلامي خوفًا من أيّ صدمة.

❖ ❖ ❖

رجعتُ إلى فلسطين محبطًا من وحشيّة الطبقيّة المصريّة (تحلو للكثيرين تسميتُها «الفقر»). كانت مصدرَ انزعاجي، وكانت صورُها المتجسّدة في التوسّل و«البقشيش» و«حاضرْ يا سعادة البيه» تلاحقني. رفضتُ الذهابَ إلى مصر مجدّدًا، وأصبحتُ أهزأ منها بسببها. ولكنّ وجداني ظلّ متشبّثًا بعبد الحليم وبمصر المتربّعة على رفوف مكتبة والدي المتواضعة؛ فكنتُ أحيانًا أخجل كلّما ذُكرتْ مصرُ، كأني أخجلُ من نفسي.

مرّ ما يقارب العشرين سنةً وأنا على هذه الحال. إلى أن جاء يومٌ وتعرّفتُ فيه على مصر واحتككتُ بها من خلال عملي السينمائيّ. فقد ذهبتُ إليها في زيارة عملٍ قصيرةٍ أجبرتني على أن أعيش فيها شهورًا قليلة. سُحرتُ بها، وسُحرتُ بالقاهرة تحديدًا، ولم أتوقّفْ بعدها عن التفكير في مُخرج السينما المصريّة الأول صلاح أبو سيف الذي صنع نوعًا من السينما جاءت تعقيداتُه مزجًا بين التحليل المركّب الفذّ للواقع وسذاجة الكاميرا الواقعيّة. هذه السينما فجأةً وَحّدتْ سخطي النابعَ من الطبقيّة القاتلة في مصر، وحبّي لمصر المتمثّلَ في مكتبة والدي وعبد الحليم وميرفت أمين. وهكذا عاد حبّي الأولُ لمصر، وعادت ثقتي بها بفضل الثقة التي منحتني إيّاها.

ولكنْ هذه المرة تعرّفتُ على شيءٍ جديدٍ لم أكن أعرفه عن المصريين. كان شيئًا محبطًا: فكلما انتُقدتِ التعاسةُ وانتُقد التناقضُ المميتُ للطبقيّة المصريّة، ردّد الجميعُ بغضب: «لا، دي مش صورة مصر!» وكنتُ دائمَ التساؤل عن ذلك الحبّ الذي يشترك فيه، على حدّ سواء، الشعبُ المصريُّ ونظامُه، وبدا لي ذلك «الحبّ» وهميًا لأنّ تلك الـ «مصر» كانت وهميّة.

وفجأةً جاءت الحربُ على غزّة، فدلّت على لعنة العرب على ذاتهم وطبقيتهم تجاه أنفسهم أضعافًا مضاعفةً عمّا شعروه تجاه ذاتهم في الحرب على لبنان (جنوبه) سنة ٢٠٠٦.

هكذا أصبحتُ أسيرُ كأنني سكران لا يصحو من خبله: لقد تبعثرتْ مصرُ الموجودةُ على رفوف مكتبة أبي، واحتُجزتْ روحُ عبد الحليم (أين السيدة ميرفت أمين؟). وكانت تلك هي المرةَ الأولى في حياتي التي أردتُ أن أسمع فيها أحدًا يقول، وبصوتٍ عالٍ، تلك الجملةَ البلهاء: «لا، دي مش صورة مصر!» ولكني لم أسمعها إلاّ من القلة. فهل يساعدني من يَخلف صلاح أبو سيف على لملمة رفوف مكتبة والدي؟ وهل تكون غزّة بدايةً لأملٍ حفره في نفسي فيلمُ **أبي فوق الشجرة**؟

الناصرة

في العدد القادم من الآداب

- **زياد الرحباني/صائد التحوّلات والانكسارات (٢)**
- **ماذا تبقّى من هويّة اليسار العربيّ اليوم (ملفّ ١)**
- **أبحاث وقصائد وقصص ودراسات في كتب**